

أبو الطيب المتنبي
بين الثقة في النفس والغرور

د. فاطمة الزهراء عبد الغفار الموافي (*)

مدخل

في عجالة ، يمكن الإشارة إلى اسمه ونسبه ومولده ، فهو الشاعر الذي طبّق اسمه آفاق عوالم الثقافة والأدبين العربي والغربي ، أحمد بن الحسين بن الحسن الجعفي ، المعروف بالمتنبّي . كان مولده بحي كندة بالكوفة في عام ٣٠٣ للهجرة ينتهي نسبه من ناحية أبيه إلى قبيلة جُعفى اليمنية ، ومن ناحية أمّه إلى قبيلة همذان اليمنية ، فهو عربي النسب (١) .

كانت الفترة التي ولد المتنبّي فيها ونشأ فترة ضعف وتدهور للخلافة العبّاسية في بغداد ، وأصبح الخليفة العبّاسي رمز الحكم القويّ والسلطة ، لقباً فقط ، لا يملك القدرة على تسيير أمور الخلافة ، وبفعل ذلك تجزأت الدولة ، وسيطرت عليها عناصر من جنسيات مختلفة ، فارسية أو تركية ، حتى إنّ العنصر العربي الذي سيطر على بعض أجزائها قد وقع أيضاً تحت نير أهواء المذاهب المتعدّدة ، ودبّ النزاع بين العناصر المختلفة . في هذا الجوّ المتوتّر المضطرب ولد الشاعر ونشأ، ثمّ تنقل بعد ذلك بين المدن والبوادي ، واستقرّ به المقام في بادية بني كلب ، إحدى بوادي الشام ، وإن كان المتنبّي قد نال قسطاً من العلم في مدارس الكوفة ، وكان التأسيس اللغوي والفصاحة وطلاقة

(*) أستاذ النقد الأدبي بكلية اليمامة بالرياض – السعودية .

اللسان قد اكتسبها من البادية ، فخرج بهذا وسط خضمّ متلاطم من الأحداث والمفترقات الحياتية المتعدّدة ، فشعر بتفرّده عمّن حوله قياساً لتلك النماذج من البشر الذين سقطوا تحت أطر الاضطراب والفرقة ، واعوجاج اللسان العربي آنذاك .

لقد شهدت تلك الحقبة تغيُّراً حياتياً شاملاً ، بفعل العنصر الأعجمي ، في بنية الدولة العباسية وكيانها كلّه ، وقد أشار باحث إلى هذا الجانب – تحديداً – بالقول :

" ولكنّ تغيُّر وجه المجتمع أسهم في خلق صورة له مختلفة عن سابقتها ، فظهرت معائب وقبائح لم تكن مألوفة في المجتمع العربي الصافي ، وإنّما هي صدى لجانب منحرف في الخلق الفارسي ، الذي فرض سماته على الدولة الجديدة".

ثمّ يعقب ذلك بالقول :

" فانتشرت الزندقة والشعوبية والإسراف في كراهية العرب ، والحملة عليهم ، والإيغال في المجون ، والتحلل الخلقي ، والمجاهرة بالمعصية ، والغزل بالغلمان ، والإغراق في شرب الخمر وتمجيدها ... " (٢)

من هذا المنطلق عبّر المتنبّي في شعره عن فخره بعروبته الخالصة من ناحية وبتميّزه اللغويّ والإبداعي من ناحية أخرى ، وجاء شعره صورة واضحة لهذا الفخر ، حتى في سني حياته المبكرة . يقول المتنبّي تعبيراً عن هذا البعد :

أيّ محلّ أرتقي أيّ عظيم أتّقي (٣)

وكلّ ما خلق الله وما لم يخلق

محتقر في همّتي كشعرة في مفرقي .

ولعلّ مثل هذا القول هو ما دعا كثيرين لاتهامه بالغرور ، وإن كنت أرى أنّ واقع حياته الخاصة ، وما كان من حوله من متغيّرات سريعة على صُعد الحياة بعامّة ، قد ولّد لديه مثل هذا الشعور ، ودفع به إلى الإحساس بثقته في نفسه ، والتسامي بها ، فهو يرى أجناساً مختلفة وألسناً متباينة ومتعدّدة ، وشعراء يعبّرون بألفاظ غير مفهومة - في أحيان كثيرة - ، مع اختلاط في الأنساب ، ممّا كان له دور كبير في إحساس المتنبّي – أيضاً - بدونية مَن حوله ، وبأنّه نموذج مختلف ، وقد جاء هذا المعنى بشكل مباشر في بعض أشعاره ، من مثل قوله :

نفس تصغر نفس الدهر من كبر لها نهى كهله في سن أمرده

فهو يتسامى بنفسه على نفس الدهر ذاته ، إذ إنّه يحمل في صباه عقل شيخ وحكمته . لقد نوّه كثير من النقاد ، وفي عصور متتابعة ، بتميّز المتنبّي وبأنّه شاعر القرن الرابع بلا منازع ، ذلك انطلاقاً من قدراته اللغوية والتعبيرية ، ومضامين شعره ، وقدراته – كذلك - على توظيف عناصر اللغة والبيان والبديع في شعره بشكل بديع ، فكان ذلك إيذاناً بعلو مكانته وسمو قدره .

لقد أحسّ المتنبّي بسخط شديد وتأزّمت نفسه حين رأى مصرع العروبة على أيدي أجناس مختلفة ، وشعر بتهاوي مكانة اللغة العربية ، ومحاولات طمسها تحت براثن الغزاة ، ممّا ولّد في نفسه رغبة عارمة في أن يتبوأ مكانة المنافح عن اللغة وأصحابها ، وعن فكرة العروبة ، وحمل في داخله شعورا يقينياً بأنّه جدير بالقيادة ، بل إنّه - حسبما أحسّ بقوّة - أجدر بالحكم من كثيرين ممّن أصبحوا حكاماً من غير قدرة للحفاظ على موروث اللغة وكيانها . وقد ترجم هذه المعاني بشكل مباشر في بعض شعره من مثل قوله :

أفكّر في معاقرة المنايـــا وقوْد الخيل مشرفة الهوادي

زعيم للقنا الخطّيِّ عزمـــي بسفك دم الحواضر والبوادي

إلى كم ذا التخلف والتوانـــي ؟ وكم هذا التمادي في التمادي ؟

وشغل النفس عن طلب المعالي ببيع الشعر في سوق الكســـاد

إنّه ساخط بشكل علني على الحكّام ، يصرح بهذا بدون خوف أو وجل ، وهو يضمّن شعره هذه المعاني الثائرة ، مردّداً إيّاها لتصبح معاني للتمرّد والخروج على هؤلاء الحكام جميعهم . يقول في أبيات له حول هذا المعنى :

أيملك الملك والأسياف ظامئة والطير جائعــة لحـم على وضــم

من لو رآني ماء مات من ظمأ ولو مثلـت له فــي النـوم لم ينـــم

ميعاد كلّ رقيق الشفرتين غداً ومَن عصى من ملوك العُرب والعَجَم

فإن أجابوا فما قصدي بها لهم وإن تولوا فمــا أرضـى لهــا بهـــم

إنّ سيطرة الأعاجم على العرب في فترة من فترات العصر العبّاسـي ، والتي شهد مظاهرها المتنبّي ، كانت بمثابة فترة عصيبة ومأزومة ، على الصعيد الواقعي كله وعلى صعيد حياة المتنبّي بشكل خاص ، إذ كان لذلك أثره الكبير في نفسية الشاعر ، وإحساسه المفجع بما يرى ويعايش ، فالعنصر العربي أصبح مسخّراً كالعبد ، لأسياد لا يستحقون الملك أو الحكم ، وكان هذا كله مولّداً حالة من التمزّق النفسي والتوتّر اللامحدود ، فانبثقت من نفس الشاعر صرخة مدوّية . يقول المتنبي في هذا المعنى :

وإنّما الناس بالملوك ومــا تفلح عرب ملوكها عجــم

لا أدب عندهم ولا حـــسب ولا عهود لهم ولا ذمـــم

بكل أرض وطئـــتها أمـــم تُرعى بعبد كأنّها غنـــم

يستخشن الخزّ حين يلمسـه وكان يُبرى بظفره القلـــم

لقد كان من آثار هذا كله أن اتّسم العصر بعجمة اللفظ واعوجاج اللسان العربي، فدفع أصحاب الكلمة والرأي ، ومنهم المتنبّي ، لأن يبحثوا عن مخرج من هذه الأزمة الطاحنة ، لكنّ ذلك كان مستعصياً ، فاللغة العربية تعاني وتواجه تحدّياً صعباً ، وسوء اللفظ والتعبير أخذ في التصاعد والاستمرار ، والحكّام لا يجيدون فهم اللغة أو الحفاظ عليها ، والمتنبّي في ظلّ هذا كله يزداد إحساسه بالمسؤولية ، ويشعر بأنّ تميّزه وتفرّده هو السبيل لمواجهة هذا التحدّي ، ولعلّ هذا ما دفعه إلى القول :

أنا ترب الندى ورب القوافي وسهام العدى وغيظ الحسود

أنا في أمّة تداركها اللـ ـه غريب كصالح في ثمود

ما مقامي بأرض نخلة إلا كمقام المسيح بين اليهود (٤)

اتّهامه بالغرور

لعلّ كثيراً من الأبيات التي تضمّنها ديوان المتنبّي ، ومنها الأبيات التي أوردناها مسبقاً ، أن تكون هي دافع كثير من الدارسين والنقّاد لأن يتّهموه بالغرور (٥) ، وفي هذا الصدد لا بدّ أن نقف عند فترة مهمّة من حياته ، قد تجلو لنا بعض ملامح هذا الجانب ، ونحن نحاول دحض مثل هذه الآراء أو التهم عن الشاعر ، وأعني بذلك فترة إقامته في اللاذقية بالشام لبعض الوقت ، ذلك حين قدومه إليها في عام ٣٢٢ للهجرة ، كما يقول " البديعي " (٦) ، فهي تشكل فترة ذات أثر خطير في حياته ، حيث سيطرت إحساسات عارمة بوجوب إحياء العروبة ، فكرة وسلوكاً ولغة على الشاعر ، وأن تعود سيطرة الدولة العربية - ولو بحدّ السيف - . وانطلاقاً من هذه الرؤية أخذ المتنبّي بجمع مؤيدي هذه الفكرة ، لتكون الانطلاقة الثائرة من بلاد الشام وبواديها ، ولعلّ تلك الفترة المتوتّرة الصاخبة هي التي دفعت ببعض الدارسين والنقاد باتّهامه بادّعاء النبوة . وفي هذا يقول ابن القيّم :

" وقد كان المتنبّي لمّا خرج إلى كلب وأقام فيهم ادّعى أنه علويّ حسيني ، ثمّ ادّعى النبوة بعد ذلك " (٧) .

لقد كان هذا الادّعاء - حسبما يرى دارسون وباحثون - سبباً لأن يقبض عليه " لؤلؤة " أمير حمص من قبل الإخشيدي في مصر ، وإيداعه السجن ، ليمكث فيه عامين اثنين كاملين ، وليشكّل ذلك مرحلة حرجة في حياة المتنبّي ، اتسمت بالقلق والتوتر والاضطراب النفسي . يقول الأصبهاني حول هذه الفترة من حياة المتنبّي:

" إنّه في تطوافه في أطراف الشام ، واستقرائه بلاد العرب قاسى الضرّ وسوء الحال ونزارة الكسب ، وحقارة ما وصل إليه بشعره حتى إنّه مدح بدون العشرة والخمسة دنانير " (٨) .

لقد صبغت تلك الفترة المأساوية في حياة المتنبّي شعره بطابع السوداوية والكآبة وتضمّن شعره نماذج كثيرة عن الأعداء والحسّاد والكائدين ، بل كان تأثير تلك الفترة النفسي شديداً أيضاً ، إذ أصيب بحالة من التخوّف والترقب لشيء لا يدرك كنهه ، وأحسّ أن ثمة مَن يلاحقه دوماً ، يرصد عليه حركاته وسكناته ، وأن الكائدين يدبّرون له المكائد ، إلى غير هذه وتلك من الظواهر النفسية المرضية التي تبدو غريبة على شخصية المتنبّي ، الذي عُرف بأنه المقدام الجرئ الشجاع .

أمام هذا كله كان المتنبّي يواجه تحدّياً مفروضاً وحتميّاً ، ولهذا نراه سرعان ما بدأ يخرج من هذه الدائرة القلقة ، ليدافع عن عبقريته التي أحسّ بأنّها مهانة من مثل هؤلاء الحاسدين والحاقدين . يقول حول هذا الجانب :

فؤاد ما تسليه المدام وعمر مثل ما يهب اللئام

ودهر ناسه ناس صغار وإن كانت لهم جثث ضخام

وما أنا منهمُ بالعيش فيهم ولكن معدن الذهب الرغام

على صعيد تحليل هذا الجانب في شخصية المتنبّي ، والوقوف على البعد النفسي في علاقاته بالواقع الذي يعيش ، والآخرين الذين يتعامل معهم ، أرى أنّ ثمّة جانباً نفسيا مهمّا قد لعب دوره المباشر في تشكيل جانب من جوانب الصراع النفسي في شخصية المتنبّي ، ويبدو هذا - في رأيي - عاملاً مهمّاً في رصد جوانب أخرى في نفسيته ، ذلك جانب ، ورصد بعض ملامح علاقاته مع الآخرين من حوله ، في جانب آخر ، وأعني به إخفاق المتنبّي في كثير من فترات حياته في التوفيق بين آماله وتطلعاته الحياتية وبين واقعه المعيش ، ذلك جانب ، أمّا الآخر فهو فشله المتتابع في إصلاح وضع أمّته من حوله ، ويبدو أنّ الجانبين المشار إليهما مسبقاً هما اللذان ولدا حالة الصخب النفسي المستمر في شخصية المتنبّي .

ولكن لنأخذ هذه النقطة من منظور آخر ، ولنتساءل ، هل كان هذا كله دافعاً له للاستسلام والخنوع أو الخضوع لحالة الفشل تلك ، أم أنّه بقي على تحدّيه ومواجهته وتصدّيه لحسد الحسّاد والمغرضين ؟ . في شعره كثير من النماذج التي تؤكد على حالة المواجهة القوية التي يحاول من خلالها الحفاظ على مكانته وتميّزه. يقول في بعض شعره :

إنّي وإن لمت حاسديَّ فما أنكر أنّي عقوبة لهم

وكيف لا يحسد امرؤ علم له على كلّ هامة قدم

ويقول أيضاً :

أرى المتشاعرين غروا بذمّي ومَن ذا يحمد الداء العضالا

ومَن يك ذا فم مُرٌ مريض يجد مُرّاً به الماء الزلالا

في خضم بحثه الدؤوب عن مكان له في عالم تتصارع فيه الخطوب والأحداث ، وتمور في نفسه مشاعر شتى وإحساسات متوترة ، وفي مسار البحث عمّن يقدّره ، ويحترم نبوغه ، أتيح له الاتصال بسيف الدولة الحمداني ، وكان ذلك منعطفاً خطيراً في حياته ، إذ احتضنه سيف الدولة ورفع من مكانته، وحظي في ظله بحياة هانئة مستقرّة ، ينعم فيها بالحبّ والتقدير ، وتقول سيرة حياته إنّ سيف الدولة حافظ على كرامة الشاعر وإنسانيته ، فقبل شرطه في أن يقول الشعر بين يديه وهو جالس من غير أن يقبّل الأرض بين يديه كما كان يفعل شعراء آخرون . يقول الأصبهاني في هذا الصدد ، مشيراً إلى الدالّة التي حظيها المتنبّي في كنف سيف الدولة :

" ثمّ أقام المتنبّي عند سيف الدولة على التكرمة البليغة في أسناء الجائزة ورفيع المنزلة . ودخل مع سيف الدولة بلاد الروم في غزوتي المصيبة والفناء" (٩) .

ويقول العميدي في الإطار نفسه :

" وحسن موقعه عنده ، وقرّبه ، وأجازه الجوائز السنيّة ، ومالت نفسه إليه وأحبّه، فسلمه إلى الرُوّاض ، فعلموه الفروسية والطراد والمثاقفة ، وصحب سيف الدولة في عدّة غزوات إلى بلاد الروم ، ومنها غزوة الفناء التي لم ينجُ منها إلا سيف الدولة بنفسه وستة أنفار منهم المتنبّي . وأخذت الطرق عليهم الروم ، فجرّد سيف الدولة سيفه وحمل على العسكر وخرق الصفوف وبدّد الألوف " (١٠) .

مكانته في كنف سيف الدولة فكرة التوّحد قاعدة ثقته بنفسه

لقد لازم المتنبّي سيف الدولة ، وحاز في كنفه على الدالّة والمكانة العظيمة – كما ذكرنا آنفاً - وهيأ له ذلك واقعاً جديداً على الصعيد النفسي والإبداعي ، فقد هدأت نفسه ، واستقرّ به المقام، ووجد في عالمه الجديد مساحة واسعة

يتحرّك فيها إبداعاً شعرياً متميّزاً ، وأكسبه هذا كله شعوراً بالاستقرار والثقة في النفس ، وانقطع عن الترحال والتنقل ، بكلّ ما فيه من مشاعر الغربة والقلق والبحث عن المجهول ، ومن ثم انفصل كثيراً عن أولئك الذين حاربوه وحقدوا عليه ، وكان قربه من سيف الدولة إيذاناً بشعوره بأنّ ثمّة حفاظاً على كرامة العربي قد تهيأت ، فسيف الدولة في نظره هو الأمير العربي القويّ ، وهو الملاذ والحماية للعرب والحفاظ على كيانهم في ظلّ الصراعات الرهيبة التي كان يواجهها العنصر العربي - كما نوّهنا بذلك من قبل - . وقد أشبع سيف الدول بهذا نفس المتنبّي فخاراً بالعرب ، إذ كان حاكماً عربياً أصيلاً يكره الأعاجم ، ويحارب منْ أجل عروبته ، كما أنّه — بشجاعته - قد تصدّى للروم أيضاً على حدود الدولة العربية شمالاً، وحاول محاربة الإخشيديين في الجنوب — أيضاً - وكان سيف الدولة بهذا قد مسّ وتراً حسّاساً لدى المتنبّي ، فكان ذلك كله بدء مشوار المتنبّي في مدحه، ملتزماً في أشعاره تلك بالتعبير بعاطفة صادقة ، لا يبغي من ذلك عطاءً ، وإنّما كان مديحه تعبيراً عن موقف ، والتزاماً بقضية أكثر اتّساعاً وقيمة من مكاسب مادية آنية ، إنّه كان يعبر عن صدق مشاعره بعروبته ، والفخر بنفسه وبكيانه العربي . وقد جاءت تلك المدائح صورة حقيقية للثقة بالنفس - التي نحن بصددها في هذا المقام - ولم يكن أمام المتنّي إلا مثل تلك اللغة والمعاني والرؤى التي عبّر بها ، وعنها لإيصال الدلالات التي أشرنا إليها من قبل ، والتي تترجم أحساساته الصادقة تجاه ممدوحه ، وتجاه واقعه - الذي يحيا - برمته .

إنّ مدائحه في سيف الدولة ارتبطت بوقائع حياتية معيشة حتّمت انطلاق إحساساته الصادقة لتأكيد الهدف منها ، وكان المتنبّي على قدر كبير من التوفيق والإبداع في هذا الصدد ، إذ كان يلاحق كلّ حدث بما يفجّر لديه طاقات التعبير والتصوير الشعري البديع ، انطلاقاً من المعاني المستهدفة

والمشار إليها مسبقاً . فها هو يمدح سيف الدولة بعد واقعة حربه مع بني كلاب، إذ يقول :

ولو غير الأمير غزا كلابـاً   ثناه عن شموسهم ضبـاب
ولاقى دون ثأيهم طعانـاً   يلاقي عنده الذئب الغـراب
وخيلاً تغتذي ريح الموامي   ويكفيها من الماء السـتراب
ولكن ربّهم أسرى إليهـم   فما نفع الوقوف ولا الذهـاب
ولا لـيل أجـنّ ولا نهـار   ولا خيل حملن ولا ركـاب
رميتهم ببحر من حديـد   له في البرّ خلفهم عبـاب

وفي أبيات أخرى له ، يعمّق من فخره واعتزازه بسيف الدولة بعد انتصاره على الروم في إحدى معاركه ، إذ يقول :

لهذا اليوم بعد غد أريـج   ونـار في العدو لها أجيـج
تبيت بها الحواضن آمنـات   وتسلك في مسالكها الحجيج
فلا زالت عداتك حيث كانت   فرائس أيّها الأسد المهـيج
عرفتك والصفوف معبّـآت   إذا يسجو فكيف إذا يمـوج (١١) .

لقد شكلت تلك المرحلة من حياة المتنبي قاعدة متينة بنى عليها ثقته بنفسه ، ويمكن الإشارة في هذا الصدد إلى بعدين اثنين مهمّين ، يمكن أن يكونـا أساسـاً لتعزيز هذه الثقة والتسامي بها ، الأوّل منهما هو أنّ فخـار المتنبّي بنفسه جاء انعكاساً حتمياً من وحي فخاره بسيف الدولـة ، ولنقل بـأنّ ثمّة جانبـاً نفسياً في هذا الإطار ، وهو ما يتعلق بطبيعة العلاقة التوحّدية بين المتنبّي وسيف الدولة، فالمتنبّي كـان يرى نفسه في سيف الدولـة ، وأصبح إحساسـه بـه هو إحساس بكينونته هو ، ومن ثمّ كـان المدح والفخر والاعتزاز مفاهيم وقيماً عبّر بها

المتنبّي - في حقيقة الأمر - عن نفسه هو ؛ لأنها في واقع الأمر قد فجّرت رؤاه وقناعاته الذاتية بالمقام الأوّل .

ذلك جانب ، أمّا البعد الثاني فهو متعلق بواقع الحياة نفسه من حول المتنبّي - والذي أشرنا إليه من قبل - حيث الصراعات النفسية والتأزّم الذاتي عند المتنبّي ، ذلك الذي ولّد إحساساً بالغربة والضياع وتمزّق النفس في مواجهة واقع مرير يفتقد فيه أدوات التغيير والمواجهة الفاعلة إلا من خلال الكلمة ، التي وجد ضالته فيها ومعها من خلال شخصية سيف الدولة .

من أشعاره في هذا الصدد ، التي تترجم هذا البعد بصورة مباشرة وبديعة قوله :

فأنت حسام الملك والله ضـــارب　　وأنتَ لواء الدين والله عاقــد

وأنت أبو الهيجا ابن حمدان يا ابنه　　تشابه مولود كريم ووالـــد

أحبّك يا شمس الزمان وبـــدره　　وإن لامني فيك السهى والفراقـد

وذاك لأنّ الفضل عندك باهـــر　　وليس لأنّ العيش عندك بارد (١٢)

إن التوحّد على الصعيدين النفسي والحياتي الواقعي - حسبما أرى - هو القاعدة التي انبنى عليها إحساس المتنبّي بثقته بنفسه ، وإن بدا محقّقاً آماله وطموحاته السامية في وضع قاعدة متينة وقوية للعنصر العربي ، بغية إحياء كينونته ومكانته ورسم خطوط واقع ، ومستقبل أكثر إشراقا له ، بل والتسامي بفكرة العروبة إلى مصاف أكثر ألقاً وإشراقاً . يقول الدكتور " خليف " في تعليقه على ما آلت إليه نفس المتنبّي في كنف سيف الدولة ، بما يؤكد على المعنى الأكثر شمولاً هنا ، وبما يتماشى مع البعد الذي أشرت إليه من قبل حول فكرة التوحّد :

" خمدت نيران ثورته ، وخبت جذوة الحقد والسخط على الناس وعلى نفسه، ولم يعد يفكر في الملك والسلطان ولا في استخدام العنف والقوّة في سبيل الوصول إلى أغراضه ، وإنّما انحصرت همّته عند مديح سيف الدولة وانتظار عطائه في سبيل الوصول إلى الغنى والثراء " (١٣) .

وحول المحور نفسه ، وتأكيداً على الفكرة ذاتها ، يشير د. " طه حسين " في كتابه " مع المتنبّي " إلى أنّ تلك الفترة التي عاش فيها المتنبّي في كنف سيف الدولة إنّما تمثّل مرحلة ثراء نفسي ، وعطاء إبداعي متميّز وذات خصوصية ، تحتّم الحفاظ عليه ، فهو شعر يتّسم بالروعة وهو أحقّ بالبقاء والخلود .

ومن البدهي أن تولد مثل هذه الحياة وهذه الدالّة العظيمة التي حظيها المتنبّي تربة صالحة لكيد الكائدين وحسد الحسّاد ، ووجد هؤلاء فرصة عظيمة في محاربته من خلال تحوير أقواله إلى صور من الغرور والتعالي ، واتّخذوا من تلك الأشعار ، برغم اختلاف دلالاتها عمّا ذهبوا إليه ، وسيلة للطعن فيه عند سيف الدولة ، وبدأوا يشككون في نواياه وصدق أشعاره فيه .

الجدير بالذكر أنّ مثل هذه الحرب كان لها نتيجة نفسية أيضاً ، إذ إنّها قد دفعت المتنبّي لأن يدافع عن نفسه ، فاندفع للتعبير عن تفرّده واعتداده بنفسه ، بل دفعه ذلك أيضاً للسخرية ممّن حوله ، وبخاصة مَن كان منهم يجالس سيف الدولة على قاعدة من الغدر والخيانة والمكر ، وكان بهذا قد عمّق من الهوّة بينه وبينهم ، وانطلق لسانه بما يوسّع من دائرة الجفاء بل الكره بينهم . لقد كان لذلك أثره النفسي المباشر أيضاً في نفس سيف الدولة ، ولعلّ وصول هؤلاء الحاقدين والمغرضين إلى إقناع سيف الدولة بما يستهدفون من محاربة المتنبّي وإخراجه من دائرة التلاحم مع سيف الدولة ، قد كان له تأثيره النفسي السلبي في حياة المتنبّي .

يذكر البديعي واحدة من الوقائع التي حدثت في مجلس سيف الدولة ، وهي ذات صلة مباشرة بما نشير إليه هنا ، إذ عرضت مسألة لغوية بين أبي الطيّب اللغوي ، وابن خالويه ، ولم يعلّق المتنبّي ، فسأله سيف الدولة رأيه ، فتكلم المتنبّي مؤيّداً رأي أبي الطيّب اللغوي وضعّف رأي ابن خالويه ، فأخرج ابن خالويه مفتاحاً جديداً من كُمّه وضرب به المتنبّي . ويروي البديعي متابعة لهذه القصّة ، فيقول :

" فقال له المتنبّي : اسكت ويحك ، فإنك أعجمي وأصلك حوزي ، فما بالك والعربية ؟ . وبعد أن سال دم المتنبّي من وجهه وأغرق ثيابه ، لم يتحرّك سيف الدولة ، ولم يدافع عن المتنبّي ، فكان ذلك سبب فراقه لسيف الدولة"(١٤).

القلق حالة خلق وإبداع

لعلّ حياة المتنبّي ، بكلّ ما اتسمت به من الخصوصية ، وما طبعها بطابع القلق الدائم ، في مشوار البحث المستمر عن شيء مفقود لديه ، ولد لديه إحساساً بالقلق، ذلك الذي رافقه مشوار حياته كلها ، ويبدو أن قلق المتنبّي قد أصبح هو ذاته حالة فريدة وخاصة ، ولعلّ متتبّعاً لمسيرة حياة الشاعر ، وما عايشه من أحداث ومَن ارتبط بهم من شخصيات على مدى فترات متلاحقة من حياته ، يدرك أنّ قلقه إنّما جاء بفعل دافعين اثنين ، أوّلهما إحساسه المشار إليه بأنّ ثمّة شيئاً مفقوداً دأب في البحث عنه دونما وعي حقيقي بمتطلبات الوصول إليه أو تحقيقه ، ذلك جانب ، وفي جانب آخر فإن الشاعر كان يدرك في أعماقه أنه يحمل رسالة عظيمة ، يمكن وصفها بمفاهيم عصرنا بأنها رسالة قومية ، ذات بعد وطني ، فالعروبة بوصفها مفهوماً شمولياً كانت هي هاجس المتنبّي الحقيقي ، وهو هاجس رافقه مشوار بحثه المشار إليه ، ومن ثمّ كان الصراع بين قناعة الشاعر بمصداقية هذه الرسالة القومية ، وحمله أمانة تحقيقها والدفاع عنها ، في ناحية ، وتناقضات الواقع من حوله ، وعدم قناعة

الآخرين بصدق مبتغاه ، في ناحية أخرى ، هو ما ولد مثل هذا القلق الرهيب في نفسية الشاعر .

إنّ القلق بصورته الإيجابية ، يشكل لدى المبدع ، أيّ مبدع ، مادة ثريّة وتربة خصبة للخلق الفني وإحداث التفاعل والتكيّف مع الواقع المعيش . أحد الباحثين يشير إلى هذا الجانب تحديداً بقوله :

" إنّ الحيرة والتوتر النفسي المتزن هو من ملامح حالة المبدع ، في أي إطار إبداعي ، ولعلنا نلحظ ذلك في إبداعات شعرائنا طوال مسيرة الشعر العربي " .

ثم يعقب ذلك بالقول :

" إنّ الأدوات الفنية التي يعتمدها الشاعر – أي شاعر – ليبثّ اللحظة قلقه وحيرته ، تختلف من شاعر إلى آخر ، فأدوات الشاعر الجاهلي وشاعر صدر الإسلام والشاعر الأموي والشاعر العبّاسي ، كلها تختلف باختلاف طبيعة العصر والتركيبة النفسية لكل شاعر " (١٥) .

وفي الإطار نفسه ، وبما يمكن إدراكه في قراءتنا لكثير من أشعار المتنبّي، تقول باحثة :

" إنّ للتوتر النفسي أهمية كبيرة في ارتباطه بمختلف متغيرات الشخصية، وإنّ كثيراً من الباحثين قد تنبّهوا لأهمية هذه السمة السيكولوجية ، ولأهمية ارتباطها بجوانب الشخصية ؛ فاتّضح منها أنّ هناك قدراً معيناً لازماً لأداء العمل ، سواء أكان هذا التوتر عضلياً أم نفسياً " .

ثم تردف قائلة :

" وقد أطلق العلماء على هذا المستوى من التوتر في المتغيرات الشخصية، مفهوم (الحدّ الأمثل من التوتر) " (١٦) .

ردّة نفسية

يرتبط بالبعد السابق - الخاص بمفهوم القلق عند المتنبّي – جانب آخر ؛ حيث نجد أنّ ثمّة شعوراً بالانتكاسة النفسية ، أو ما يمكنني أن أطلق عليه مفهوم الردّة النفسية لديه ، قد بدأ يغشاه ، وملك عليه حياته كلها ، فقد أصابه شعور بالإحباط جرّاء فقدانه حبّ كافور وإحساسه بغضبه منه ، وكأنّ التاريخ يعيد إلى ذاكرته وحياته انتكاسته النفسية في بلاط سيف الدولة من قبل ، فقد شهدت حياة المتنبي تمزّقاً نفسياً وتراجعاً عن حالة الاستقرار النفسي والهدوء الحياتي الذي عاشه في كنف كافور ، لكن حياته بدأت في التغيّر ، وأحسّ بأنّه في حالة من التوتّر والصخب النفسي شديدة ، لكنّه – وهذا أمر يدفع على الاستغراب والدهشة – بقي خاضعاً لتلك المشاعر والتوترات النفسية أربع سنوات كاملة في بلاط كافور ، يحاول في أثنائها أن يعتصر نفسه شعراً ، يمدح فيه كافوراً ، برغم قناعته بعدم أحقيته بهذا المديح ، ولعل هذا التناقض بين واقع الحياة وممارسات لم يكن المتنبي راضياً عنها ، هي التي ولدت شعوره الصاخب بالقلق والتوتر ، ودفعت به إلى الردة النفسية الرهيبة التي أعنيها هنا .

كان المتنبّي على قناعة بأن كافوراً غير مستحقّ للمكانة والسلطة التي يتبوأ مقعدها ، وكان يكنّ له مشاعر السخط والازدراء ، ولعل شعره الذي قاله في كافور في تلك الحقبة من حياته لم يكن على قدر كبير من المصداقية ، بقدر ما كان ينزّ غضباً ، ويترجم ما كان يعتمر في نفس المتنبي من ملامح الحالة النفسية التي ننوّه بها هنا .

ما يجدر ذكره - في هذا الصدد - هو أنّ شعر المتنبي كان خاضعاً لظروف حياته المتباينة المتغيّرة ، وأعني بهذا أنه كان شعراً يعبّر عن حالات نفسية متغيرة ومختلفة بين حين وآخر ، لكن معيار الحكم عليه كان يرتكز على

مؤشّر المصداقية التي يعبر المتنبي من خلالها عن مشاعره وإحساساته ، وقد أشار (طه حسين) إلى هذا البعد في شعر المتنبّي تحديداً ، بقوله :

" إنّ شعر المتنبّي يختلف باختلاف أطوار حياته " (١٧) .

لعلّ ما يمكن أن نشير إليه هنا هو ما يتعلّق بالمفاهيم العامة والقناعات التي أشرنا إليها في غير موضع من هذا البحث ، ذلك المتعلق بإحساسات العروبة والانتماء العربي التي كان يحسّها – بل يتبنّاها المتنبي – والتي كانت سبباً رئيساً في تلاحم المتنبّي – إحساساً وشعوراً صادقاً – مع سيف الدولة ، والذي كان على نقيضه إلى حدّ كبير في علاقته – من هذا المفهوم تحديداً – مع كافور ، وقد أشار إلى هذا الجانب بشكل مباشر أحد الباحثين بالقول :

" إنّ أروع ما في المتنبّي هو إحساسه القويّ بالعروبة ، وقدرته البارعة في التعبير عنها " (١٨) .

وفي موضع آخر يقول الباحث نفسه :

" إنّ العروبة لم تجد مَنْ يفضله لتختاره ترجماناً لها أروع ما يكون الترجمان ... وإنّ العرب لم ينبت بينهم شاعر قبله ولا بعده استشعر العروبة استشعاره حتى لو أردنا أن نقيم للعروبة والعرب تمثالاً لكان المتنبّي هو الشاعر الخليق بأن يقام له هذا التمثال ، وقد لبس درعاً وشدّ في وسطه منطقة وسيفاً ، وفي إحدى يديه رمح مصوّب ، وفي الأخرى ريشة الشاعر وهو يمتطي حصاناً ، وكأنه يطلب القتال والنزال " (١٩) .

هو – إذاً – يحمل في أعماقه ، منذ شبابه ، شعوراً بتحمّل المسؤولية والواجب ، حيث المواجهة والتصدي من أجل الحفاظ على العروبة ، مفهوماً وكياناً وأناساً ، ولعلّ هذا ما كان دافعاً متواصلاً له للبحث الدؤوب عمّن يحمل، من الحكام ، راية الدفاع من أجلها ، وصيانتها ، ولا يخفى أنّ التناقضات التي عايشها في كنف سيف الدولة ، وإحساساته المتصارعة حول المفهوم نفسه -

سابق الذكر - كان سبباً مباشراً - فيما ذكرنا من قبل - لشدّة الحالة النفسية المأزومة لديه ، ومن ثم حالة الارتداد النفسية التي نتحدّث عنها هنا .

لنقرأ هذا النموذج من شعره - بهذا الصدد - لندرك إلى أيّ حدّ كان المتنبي يعاني ، وإلى أي مستوى من الحالة النفسية المعبّرة عن حالة الصخب والتناقض بين ما يمور في داخله من مشاعر البغض وما كان يعايشه في واقع علاقته مع الحكام أيضاً ، وما كان يشدُّه دوماً إلى مشاعر قديمة حملها في داخله من قبل ، فكان الارتداد النفسي حالة آنية - في جانب - بفعل متناقضات الواقع المعيش من حوله، وما كان يدفعه لقراءة الماضي بما فيه من مشاعر الطموح والأمل - في جانب آخر - :

ضربت بها التيه ضرب القما ... ر فإمّا لهذا وإمّا لذا
إذا فرغت قدمتها الجياد ... وبيض السيوف وسمر القنا
فمرّت ببخل وفي ركبها ... عن العالمين وعنه غنى
فلمّا أنخنا ركزنا الرما ... ح فوق مكارمنا والعلى
وبتنا نقبّل أسيافنا ... ونمسحها من دماء العدى
لتعلم مصر ومن بالعراق ... ومن بالعواصم أنّي الفتى
وإنّي وفيت وأنّي أبيت ... وأنّي عتوت على من عتا
وما كلّ مَن قال قولاً وفى ... وما كلّ من سيم خسفا أبى

وبرغم تلك الحالة لم يصب المتنبّي شعور بالتخاذل أو التراجع ، وبقي حاملاً همَّه وفجيعته ، متحرّكاً في أصقاع متعدّدة ، بغية البحث عن حالة من الاستقرار وتحقيق الأمل والوصول إلى الهدف ، وكان تواصله مع بغداد في أخريات سني عمره محاولة جديدة لتحقيق المنشود . كانت تلك مرحلة جديدة

من الصراع والتأزّم في حياة المتنبّي ، فقد صقلته التجارب ، وشكّلت شعره الأيّام والسنون ، كما يقول أحد الباحثين (٢٠) ، فكان أن واجه في تلك الحقبة من حياته خصوماً جدداً ، من حكام ووزراء وشعراء ، يمدح بعضهم ، وينفر من آخرين ، ممّا ولد حقداً عظيماً عليه ، ولعّل في قصة (المهلبي) الذي أوعز لشعراء كثر ليهجوه ، وكذلك قصة (الحاتمي) الذي تصدّى للمتنبّي في رسالته حيث أوسعه هجاءً ، وإن تراجع من بعد حين تبيّن له خطأ ما فعل ، فوضع رسالته الثانية التي أسماها (الحاتمية) حيث ضمّنها ذكره لما قام فيه المتنبّي بمعارضة أرسطو في بعض حكمه وفلسفته . يقول (الحاتمي) في معرض حديثه عن المتنبّي :

" كان أبو الطيّب عند وروده مدينة السلام قد التحف برداء الكبر والعظمة، يخيّل له أنّ العلم مقصور عليه ، وانّ الشعر لا يغترف عذبه غيره ، ولا يقتطف نواره سواه ، ولا يرى أحداً إلا ويرى لنفسه مزيّة عليه ، حتى إذا تخيّل أنه نسيج وحده " (٢١) .

تشكّل تلك الفترة من حياة المتنبي مرحلة استقرار نفسي نسبي ، فقد حظي باحترام وتقدير من الأوساط المجتمعية ، ومن حكام وولاة كانت له بهم صلة ، كما كسب تقديراً خاصاً من الشعراء والكتّاب ، ونال دألة لدى قرائه ومحبيه ، فدفعه هذا كلّه إلى الإبداع شعراً ، ولعلّ من أكثر مَنْ أبدى إعجابه وتقديره له في تلك الفترة هو أبو الفتح بن العميد ، وكان إذّاك في الريّ ، فدعاه ، فمكث عنده مادحاً له ، وكاسباً جزيل عطائه . ومن أشعاره في مدح ابن العميد آنذاك قوله :

"بكتب الأنام كتاب ورد — فدت يد كاتبه كل يد
يعبّر عمّا لنا عنده — ويذكر من شوقه ما نجد
فأفرق رائيه ما قد رأى — وأبرق ناقده من نقد

إذا سمع الناس ألفاظـــه خلقن له في القلوب الحسد

فقلت وقد فرس الناطقين كذا يفعل الأسد بن الأســد (٢٢)

تمثل تلك الفترة مرحلة صاخبة في حياة المتنبي ، ولعل صخبها ذاك ، وتضمنها كثيراً من الأحداث المتناقضة ، سريعة التغير ، أن تكون أحد أسباب الردة النفسية التي نتحدث عنها هنا . ففي جانب ، نجد المتنبي يحظى باستقرار نفسي ، سرعان ما يتغير بفعل تغير الواقع والأشخاص من حوله ، وهو تارة يستقر في نعيم ابن العميد وعطائه ، في حين يفقد مثيله من الصاحب بن عبَّاد ، الذي كان صغير السن ، ولو يكن قد تقلّد منصب الوزارة بعد ، ولعل كبرياء المتنبي في عدم تلبية رغبة ابن عبَّاد لزيارته ، قد دفعت به للولوج إلى مرحلة جديدة من الصراع النفسي . إن حالة التوتر والقلق والصخب النفسي ، وما أدت إليه من انتكاسات الحالة النفسية للمتنبي ، قد صُنعت بيد المتنبي نفسه ، وبرغم التبريرات التي يمكن أن يضعها دارسون لشعره وشخصيته حول هذا الجانب ، إلا أنني أرى أن ثمَّة خللاً في التركيبة النفسية للشاعر نفسه ، ذلك الذي أفقده القدرة على التكيف المتوازن مع الواقع والآخرين - في كثير من الأحيان - .

ولعلَّ من الصفحات التي يجدر ذكرها في حياة المتنبي – بشكل عام – تلك التي تتحدث عن زيارته لعضد الدولة في أخريات حياته ، بعد أن أشار عليه ابن العميد نفسه للقيام بهذه الزيارة ؛ ذلك لما لهذا من دور في بلورة الواقع النفسي الدقيق للمتنبي . فقد تمت الزيارة بإرادة خالصة له ، وبرغم ذلك لم يكن قادراً على إحداث التكيف النفسي المشار إليه مسبقاً ، ذلك أن عضد الدولة أكرمه ونعَّمه في بلاطه ، وأغدق عليه العطايا ، لكن المتنبي – مع ذلك – لم يستطع أن يقدّم شعراً يليق بالشخص ومكانته . بل إن المتنبي قد أفصح عن مكنون نفسه تجاه العناصر غير العربية ، وكأنَّ التاريخ يعيد نفسه ، ويضع الشاعر في بوتقة صراعه النفسي مع النفس ، من أجل إثبات الهوية والوجود

والذات . تقول سيرة حياة المتنبي – في قراءة تلك الصفحة من حياته – إنَّ عضد الدولة حين علّق على شعر المتنبّي ، مدركاً أنه لم يصل إلى مكانة فنية عالية في إبداعه قائلاً : " المتنبّي قال جيد شعره في العرب " ، ردَّ المتنبّي بالقول : " إنَّ الشعر على قدر البقاع " . وكأنّه بذلك يؤكّد على انحيازه الشديد للعرب وانتصاره لهم ، وكان هذا الشعور – كما تروي صفحات حياته في فارس – في تلك الفترة – ملازماً له . لقد تعدّدت أشعاره التي تترجم هذا البعد بشكل واضح ومباشر ، وهي تؤكّد – في الوقت ذاته - أن صراعه النفسي كان – فيما ذكرنا مسبقاً - من أجل عروبته ، وتعزيز كيانه وهويته ووجوده ، وقد بقي هذا الصراع أساساً للردّة النفسية المتتابعة والمتتالية التي لحقته في فترات حياته المختلفة ، ليس على مستوى المرحلة الأخيرة في حياته – فحسب – بل على امتداد مسيرته الإنسانية والإبداعية . يقول المتنبي في بعض شعره حول هذا الجانب :

" مغاني الشعب في المغاني بمنزلة الربيع في الزمان
ولكنَّ الفتى العربي فيها غريب الوجه واليد واللسان (٢٣) .

الهوامش

١- وفيات الأعيان . ابن خلّكان . تحقيق د. إحسان عبّاس . دار الثقافة . بيروت ط١ ١٩٦٩م . وطبقات الشعراء . ابن المعتزّ . تحقيق عبد الستار أحمد فرّاج . دار المعارف . القاهرة ط١ ١٩٦٨م . و معجم الأدباء . ياقوت الحموي . تحقيق د. إحسان عبّاس . ط١ القاهرة .

٢- الشعر والشعراء في العصر العبّاسي . د. مصطفى الشكعة . دار العلم للملايين . ط١٠ ١٩٩٧م ص٧ .

٣- ديوان المتنبي . شرح أبي البقاء العكبري . تحقيق السقّا والإبياري وشلبي . بيروت . دار المعرفة . ط١ ١٩٨٠م .

٤- المصدر السابق . ص .

٥- في الشعر العباسي (نحو منهج جديد) د. يوسف خليف . دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع . القاهرة . ص١٢١ .

٦- الصبح المنبي . البديعي . ص٥٢ .

٧- بغية الطلب . ابن القيّم . ج٢ ص٦٤٣ .

٨- الأغاني . الأصبهاني . دار الكتب . القاهرة ١٩٦١م .

٩- المصدر السابق . ص١١٠ .

١٠- ديوان المتنبي . تعليق د. يحيى الشامي . دار الفكر العربي . بيروت . ط١٠ ٢٠٠٤م .

١١- المصدر السابق . ص٦٧ .

١٢- المصدر السابق . ص١١٠ .

١٣- في الشعر العبّاسي . (نحو منهج جديد) . مرجع سابق . ص١٣١ .

١٤- الصبح المنبي . البديعي . مصدر سابق . ص٨٧ .

١٥- الإبداع الشعري من المنظور النفسي . د. نصر عباس . دبي . ط١ ١٩٩٨م . ص١٢٤

١٦- االإبداع والتوتر النفسي . د. سلوى سامي الملا . دار المعارف . القاهرة . ط١ ١٩٧٢م . ص٦٧ .

١٧- مع المتنبي . د. طه حسين . ص٦٣ .

١٨- عصر الدول والإمارات . د. شوقي ضيف . ط١ دار المعرف . القاهرة. ص ٧٠

١٩- المرجع السابق . ص٧٤ .

٢٠- الأدب في عصر العباسيين . د. محمد زغلول سلام . ج٢ منشأة المعارف . الإسكندرية . ط١ ١٩٩٩م . ص٥٧ .

٢١- الموضّحة . الحاتمي .

٢٢- شرح ديوان المتنبي . عبد الرحمن البرقوقي . ج١ دار الفكر للطباعة والنشر . القاهرة . ص٧٨ .

٢٣- ديوان المتنبي . تحقيق يحيى الشامي . مصدر سابق . ص١١ .